مكية — الجزء الثلاثون سورة البروج — آياتها ٢٢

سُورَةُ البُرُوجِ، مِنَ السُّوَرِ المكيَّة، وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة العشاء، فعن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالسَّمَاءِ ﴿وَالطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق:١]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١]، وَنَحْوِهِمَا مِنَ السُّوَرِ»(١)، وأمر ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا أن يقرأ بها في صلاة العشاء، قائلًا: «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ اقْرَأْ سُورَةَ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١﴾ [الليل:١]، وَ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١]»(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالسماء العالية، ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أَيْ: ذات المنازل والنجوم السيارة، وقيل: بأن البروج هي منازل الشمس والقمر، وقيل: بأنها النجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦﴾ [الحجر:١٦]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وأقسم الله عَزَّ وَجَلَّ أيضًا باليوم الموعود وهو يوم القيامة؛ لأنه آت لا محاله، وأقسم به لأنه يوم عظيم فيه من الأهوال ما الله به عليم.

﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: يوم عرفة، وقيل: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، وقيل بأن الشاهد: هو الله، والمشهود: هو مخلوقاته، قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَالْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ(٣). اهـ.

وهو لفظ عام حيث أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالشاهد والمشهود ما كان، وفي «مسند أحمد» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣]: «الشَّاهِدُ: يَوْمَ الْجُمُعَةِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والحديث في «الصحيح المسند» (٢٠٠) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أخرجه ابن خزيمة (٥٢١)، وابن حبان (١٨٤٠).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٦٦).

وَالْمَشْهُودُ: يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالْمَوْعُودُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

﴿قُتِلَ﴾ أَيْ: لعن وأهلك ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أَيْ: الكفار الذين خدوا الأخاديد في الأرض وأضرموا فيها النيران؛ لإحراق المؤمنين وامتهانهم، وقد اختلفوا في أصحاب الأخدود فقيل بأنهم قوم من فارس أراد ملكهم أن يحل المحارم فأبى علماءهم فأحرقهم، وقيل بأنهم قوم من الحبشة، وقيل قوم من اليمن، وقيل غير ذلك، ومن أصرح ما جاء في ذلك مرفوعًا عن النبي ﷺ حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم(٢): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٦٦).

(٢) برقم (٣٠٠٥).

فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ».

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أَيْ: النار التي أضرموها والتهبت نيرانها وألقوا فيها الناس أحياء، وهذا منظر فضيع، وظلم عظيم، ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أَيْ: أن الكفار كانوا قاعدين على هذه النار؛ يرصدون عذاب الناس ويلقون من تردد فيها، ومن ارتد عن دينه تركوه، وهذا من أبشع الأحوال.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أَيْ: أنهم مطلعون على هذا الحال ويرقبون عذاب المؤمنين، ومعناها أيضًا حضور، وهم في فعلهم بالمؤمنين حضور لهذا الموقف.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: ما نقموا من المؤمنين: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لم يكن من المؤمنين قتل نفس، ولا قطع طريق، ولا انتهاك عرض، ولا ما يستوجب أن يقتلوا، إلا أنهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وعموم هذه الآية ينطبق على كل من حارب حملة دين الله وقتلهم أو قاتلهم، لا لذنب اقترفوه، ولا لجرم حصلوه؛ إلا أنهم اعتقدوا الحق ودعوا إليه.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ذي العزة ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المتصفِ بالمحامد والمكارم، ﴿ٱلَّذِى﴾ أَيْ: الله العزيز الحميد ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وما بينهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ

وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]، ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشهيد، فهو عالم بالعالم المشهود وغير المشهود، كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الرعد:٩] وهو المطلع الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء، في الليلة الظلماء على حجرة سوداء نملة سوداء تسير، فيبصرها ويعلم حالها، لا تخفى عليه خافية.

ثم قال جَلَّ جَلَالُهُ متوعدًا أهل الإجرام: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ بالتحريق والرد عن دينهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ من هذا الأمر العظيم، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(١).

والله إن في هذا دلالة على عظم التوبة لأنها مكفرة للذنوب والمعاصي والسيئات، فإن من تاب إلى الله تاب الله عليه وأبدل سيئاته حسنات، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠]، وقد أحرقوا المؤمنين وعذبوهم ونكلوا بهم، فأخبر أنهم لو تابوا تاب عليهم وارتفعت عنهم المطالبة والمؤاخذة.

﴿ فَلَهُمْ ﴾ أَيْ: من مات على كفره وعناده وظلمه ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان، ولا سواءً؛ فإنهم أحرقوا المؤمنين بنار ضعيفة ويُحرقون بنار قوية تزيد عليها بتسعة وستين جزءًا، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**»(٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن حال المؤمنين في الآخرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ إن الذين آمنوا بالله بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التزموا العمل الصالح في أنفسهم ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ ﴾ جمع جنة وهذا وعد عظيم، فلهم بساتين عظيمة، وقصور عالية رفيعة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٣).

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار الخمر واللبن والماء والعسل المصفى كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥]،

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذا هو الفوز الذي ليس بعده فوز، فإن المؤمن إذا أدخل الجنة يقال له: «**يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»، ينسى كل شيء، ينسى كل ما نزل به من ظلم وقهر وعذاب وشدة وضيق حال، «**هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا**» وهكذا الكافر إذا أغمس غمسة في النار قال الله له: «**يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ، لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ**»(١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [النبأ:٣١] منازل يسلمون فيها من كل آفة وبليه.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ متوعدا للكفار في كل زمن وحين: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ إن بطش الله وانتقامه للمخالفين لدينه وشرعه، والمحاربين لأوليائه من رسله ومن دونهم ﴿لَشَدِيدٌ﴾ إلا أنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: الرب عَزَّوَجَلَّ من قوته وقدرته ﴿هُوَ يُبْدِئُ﴾ الخلق من العدم ﴿وَيُعِيدُ﴾ النشأة الآخرة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المتجاوز العافي عن عباده المؤمنين ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحبوب من أوليائه والمحب لأوليائه، فإن الود هو صافي المحبة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠].

واقتران هذا الاسم باسم الرحيم والغفور؛ يدل على تجاوز الله عن أوليائه ومحبته لهم، فكل من تاب إلى الله وغفرت ذنوبه كان محبوبًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا**

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

ومن وده لأوليائه: أنه يدافع عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج:٣٨].

ومن وده لهم: أنه يهديهم ويثبتهم، كما قال: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٦].

ومن وده لأوليائه: أن يوفقهم لكل خير «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(٢).

ومن وده لأوليائه: أنه يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، فعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ، أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي(٣).

ووده لأوليائه ظاهر في حركاتهم وسكناتهم، وأعظم ما يكرمون به أنهم يرزقون الرؤية إلى وجهه يوم القيامة.

فلما أخبر عن شدة بطشه، وأخبر عن قدرته على البداءة والإعادة أتى بالإخبار أنه الغفور الودود؛ حتى لا يقع المسلم في القنوط من رحمة الله، وإنما يبطش الله عَزَّوَجَلَّ بالكافرين والمحاربين لدينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف:٥٩]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت:٤٠].

ثم وصف نفسه المقدسة بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أَيْ: أن الله هو صاحب العرش، وذكره دون غيره؛ لشرفه، فهو أعلى المخلوقات وأعظمها، وعليه استوى الرب الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو عرش كريم عظيم واسع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠٤).

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ هذا وصف لله عَزَّوَجَلَّ، أي: أنه الواسع المعظم الممجد.

وعلى قراءة: الجر في ﴿ذُوالْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾ أَيْ: أن العرش واسع، وفي الأثر عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي الْكُرْسِيِّ، إِلَّا بِمَنْزِلَةِ حَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»(١) فالعرش مخلوق عظيم واسع؛ وكان من دعاء المؤمن: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»(٢). فلو كان شيئًا أثقل من العرش لذكره النبي ﷺ في هذا الموطن.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أَيْ: أن الله يفعل ما يشاء وهذه صيغة مبالغة من الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وقال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]، فيرزق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من شاء، ويمنع من شاء، وفي الحديث: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»(٣).

ويستدل بهذه الآية أهل العلم على إثبات الصفات الفعلية لله عَزَّوَجَلَّ فهو يغضب، ويرضى، ويحب متى شاء، وكيف شاء، ومن شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية من العموم الدال على وصف الله عَزَّوَجَلَّ بكل كمال، فإن العاجز عن بعض الأعمال عنده نقص بقدر عجزه، فتجد أن الإنسان يستطيع أن يفعل شيئًا، لكنه لا يستطيع أن يفعل كل ما يريد لضعفه؛ أما الله - فله المثل الأعلى - فعال لما يريد، أراد أن يهلك أمة أهلكها، أهلك عادًا بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف. وفرعون بالبحر، وقريش بالقتل، فلا يعجزه شيء، أراد أن يخلق السماوات والأراضين خلقها، ويوم القيامة يريد أن يبدل الأرض غير الأرض والسموات يبدلها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

ثم قال لمحمد ﷺ مسليًا له وواعدًا له بالنصر والظفر: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ هل جاءك خبر الجنود الذين سبقوا هذه الأمة، الذين تمردوا على شرع الله وأمره، ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ذكره؛ لشدة

---

(١) أخرجه بن منصور (٤٢٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٦٣)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٥٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠١٨٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦)، عَنْ جُوَيْرِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه، البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، عَنْ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غطرسته إذ أنه زعم أنه الرب الأعلى ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤] وادعى أنه الإله المعبود فقصمه الله عَزَّوَجَلَّ، وجعله آية لمن بعده حيث أغرقه وأُصعد على مكان؛ حتى يراه الناس، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]، قال العلماء: السبب أن فرعون حين مات أظهر؛ حتى لا يقول الناس إنه الرب وإنما اختفى، فجعله الله آية ظاهرة لمن معه، أما ما يقوله كثير من الناس من أن جثة فرعون ما تزال موجودة الآن هذا كلام ليس عليه دليل وإنما الآية متعلقة بذلك الوقت، ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح الذين عقروا الناقة وكان مقرهم في حضرموت، ويمتدون إلى شمال الجزيرة.

ثم قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ وهذا خبرٌ من الله أنَّ الذين كفروا مهما جاءتهم الآيات والدلائل البينات، إلا أنهم في تكذيب لخبر ربهم ولدعوة رسولهم.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ لا يفوتونه، يعلم ما هم عليه فيحفظها لهم، ويجازيهم عليها يوم القيامة وإذا أراد أن يهلكهم أهلكهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة:١٩] لا يستطيعون منه فرارًا، ولا يستطيعون لبطشه دفعًا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أَيْ: أن هذا القرآن الذي بين أيديكم مقروء مجيد واسع في أحكامه، وواسع في مواعظه وواسع في علومه، وممدوح ومحمود؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو محفوظ وكريم.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ قيل ذكره، وقيل بأنه أيضًا مكتوب في اللوح المحفوظ الذي حُفظ عن عبث العابثين، وعن الزيادة والنقصان، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما خلق القلم قال: اكتب ما كان وما يكون إلى قيام الساعة» كما جاء في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: الْقَدَرَ، فَجَرَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»(١)، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٨٤٠).